

التاريخ حينما يزيد الأعمار

* دافيد هيوم (١٧١١م- ١٧٧٦م) :

" إذا تأملنا قصر حياة الإنسان ، ومعرفتنا المحدودة حتى بما يقع في زماننا - فلا شك في أننا نشعر بأننا كنا نبقى أطفالاً في إدراكنا - لو لم يقيِّض لنا هذا الاختراع [يعني علم التاريخ] الذي يرجع بخبرتنا إلى جميع العصور الماضية ، وإلى أقدم الأمم الخالية ، إن الرجل المطلع على التاريخ يمكن أن يُقال عنه من بعض الوجوه (إنه يعيش منذ بداية العالم) " (في المعرفة التاريخية/ أرنست كاسيرر ، ص ٨٠) .

وهذه المنقولة - كما ترى - خَلَّصَت في النهاية إلى سرّ النظر والتأمل للتاريخ ، وهو (معايشة بدايات العالم وملازمته كالقرين الذي لا يفصله زمان أو مكان) ، وهو تغذية لغريزة حب الاستطلاع والمعرفة والبحث المودعة في الإنسان .

ولكن لا تظن - أيها القارئ - بأن (دايفيد هيوم) كان له قصب السبق في اكتشاف هذا السر العظيم ؛ فقبله من سطّر وأفصح عن هذا السر .

فتعال معي لأضعك على شيءٍ من عبارات مسطّرةٍ ، لاثنين من المؤرخين :

1- (ابن الأثير / ٦٣٠هجري) صاحب كتاب (الكامل في التاريخ) .

قال عن فوائد تواريخ الأخبار :

" فأما فوائدها الدنيوية ، فمنها :

أن الإنسان لا يخفي أنه يحب البقاء ويؤثر أن يكون في زمرة الأحياء ، فيا ليت شعري ، أيُّ فرقٍ بين ما رآه أمس أو سمعه ؛ وبين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المتقدمين ؟!

فإذا طالعها فكأنه عاصرهم ، وإذا علمها فكأنه حاضرهم ... " . (الكامل لابن الأثير ج ١ ص ١١) .

حيث خلس (ابن الأثير) أيضاً في نهاية مقولته إلى ما قرره (دايفيد هيوم) بالنتيجة ذاتها :

بأن مطالعة أخبار الماضين تعد معاصرة لهم خارج الزمن ، والعلم بها يعد حضوراً ومعايشة لهم .

2 - (مسكويه / ت ٤٢١ هجري) صاحب كتاب (تجارب الأمم) .

قال وهو يصف أحداث التواريخ وتجاربها :

" ورأيتُ هذا الضُّربَ من الأحداث ، إذا عُرِفَ له مثالٌ مما تقدِّم ، وتجربةٌ لمن سلف ، فاتُخذ إماماً يُقتدى به ، حُذِرَ مما ابتُلِيَ به قومٌ ، وتُمسِّكُ بما سعد به قومٌ .

فإن أمور الدنيا متشابهة ، وأحوالها متناسبة ، وصار جميع ما يحفظه الإنسان من الضرب كأنه تجارب له ، وقد دُفِعَ إليها ، واحتنك بها ، وكأنه قد عاش ذلك الزمانَ كلَّه ، وباشر تلك الأحوال بنفسه ، واستقبل أموره استقبال الخبر وعرفها قبل وقوعها ، فجعلها نصب عينه وقبالة لحظه ، فأعدَّ لها أقرانها وقابلها بأشكالها ... " (تجارب الأمم ج ١ ص ٥٩) .

ويتضح التقارب بين المقولتين السابقتين من خلال ما يشير (مسكويه) من :

١- تصيير ما يحفظه الإنسان من تاريخ ما مضى إلى تجربةٍ تضاف لتجربته الجديدة ، وكأنه عاش الزمانين (زمان ماضيه وزمان حاضره) .

٢- الفارق الذي ألمح إليه ما تبعته المقاربة بين الزمانين من حيلة وبصيرة ، وذلك واضح في عبارته

: (وعرفها قبل وقوعها ، فجعلها نصب عينه وقبالة لحظه ، فأعدَّ لها أقرانها وقابلها بأشكالها ...)

ولكن حينما نعود للوراء ، إلى كلمات الإمام علي (ع) ، سنقع على المنبع الأصيل لتكوين هذا السر العظيم ، وسنتلمس الملامح الأولى للنتيجة التي وصل إليها (دايفيد هيوم) و (ابن الأثير) ومن قبلهما (مسكويه) .

فمما قال في وصيته لابنه الحسن (ع) :

□ ... إِنْ نَزَّيْ وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمَرَاءُ عُمَرَاءُ مَن كَانَ قَيْلِي - فَقَدِ نَطَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ وَفَكَرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ - وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ - بَلْ كَأَنْزِي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ - فَدَّ عُمَرَاءُ مَعِ أَوْلِيهِمْ إِلَيَّ آخِرِهِمْ - فَعَرَفْتُ صَفْوَةَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ زَخِيلَهُ ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ وَصَرَفْتُ عَنكَ مَجْهُولَهُ ... □.

فالإمام بكلامه البليغ هذا ، تجاوز :

١- (المعايشة والمزامنة) التي اكتفى بها (ابن الأثير) و (دايفيد هيوم) .

٢- التشابه بين الأخبار والأحداث في اكتساب الحصانة لأمثالها عند (مسكويه) .

وقد رسم بعداًً أوسع أفقاًً من مجرد التعرف والاندماج التعاطفي ، فالناظر والمفكّر للتاريخ عنده ، هو من يزحج حجاب الزمن ويتقمص منظورهم ؛ لكن بلا مسابرة تتصف بحدود رؤاهم ونهجم .

فهو مسابِرٌ مَبِينٌ ، لا يصح كل ما عملوه ؛ بل يسير بمصفاة تفرز المصفى من الكدر ، والنافع من الضار ، وينخل الجميل من القبيح ، ويصرف المعلوم عن المجهول .

وهو لا يلبي رغبة الاستطلاع فقط ؛ بل يعزز النظر والتأمل بالتحليل والنقد ، كي تتراكم التجارب

والخبرات لتصنع عمراً مخضماً بين الماضي والحاضر ، غير مقيّد بزمن محدود ، ولا مكان معدود .

فالتاريخ عنده ميدان متاح لسياحة ذهنية متنوعة ومتجددة ، وفضاء مفتوح لأي زائر يود اقتناص الصيد الثمين والموفور في تصاعيف الأحداث .

ولعل المائر الفريد في تجربة الإمام علي ، هو (حس الرساليّة) في توريث خلاصة التجارب البشرية لابنه ، ليكمل الجيل الجديد سلسلة الفكر والنظر لتاريخ الأمم ، فتكون له - بالإضافة إلى امتلاك ضرورة الدرس والمطالعة للتواريخ - مراكمة خلاصة التجارب الواعية لآليات التفكير والنظر .

وفي نموذج آخر للإمام من وصيةٍ إلى أحد أصحابه :

□ ... وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ ° وَآثَارِهِمْ ° :

١- فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا .

٢- وَعَمَّاسَا انْتَقَلُوا .

٣- وَأَيُّنَ حَلَّوْا ° وَنَزَلُوا .

٤- فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ ° قَدْ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحْبِسَةِ ، وَحَلَّوْا ° دِيَارَ الْعُزْبَةِ .

٥- وَكَأَنَّكَ عَنِ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ □.

حيث يكمل الصورة في هذه العبارات ، ويفصّل الكيفية التي أجملها في وصيته السابقة ، من خلال الربط بين العمل والمصير الدنيوي ، والتي تحت الهمم وتوقظ الغافلين الذين أعمت الدنيا بصيرتهم عن حتمية المحدودية ، والتي لا ينفك الإنسان عنها في كل عصر .

ويبلغ بنفسه - في وصيةٍ أخرى - مبلغ المودّع الذي يكشف عن مكنون قيمته وموقعها فيمن عاصروه :

□ أُنزِلَ بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ ، وَأُنزِلَ الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، وَغَدَاً مُفَارِقُكُمْ °

...

غَدَاً تَرَوْنَ أَيْسَامِي ، وَيُكْشَفُ لَكُمْ ° عَنْ سَرَائِرِي ، وَتَعْرِفُونَ نِي بَعْدَ خُلُوصِ مَكَانِي ، وَفِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي □.

وحي أن تكون الصفة عبرة ؛ لما تحمل تجربته من سمات نموذجية حرة بالاحتذاء والافتداء والإتساء ، كما أكد بأن قيمته التي لم تقدر من قبلهم ستعود حسرة عليهم حينما يكشف الفراغ الذي يتركه فراقه فيهم ، فعندئذٍ تتراءى أيامه بأسرارها ، وتضييعهم تلك الفرص الثمينة ، فلا ينفع الندم بعدها .

فبدل من تضييع الأعمار ، والسير المتنكب عن نهجه ، كان أولى لهم أن يتأملوا وصيته ليرعوا .

بهكذا نصح الأعمار الناضجة لعمر الإنسان ، الذي يشكل حلقة متواصلة من المسيرة الإنسانية الهادفة والعارفة والواعية لحركتها وخط سيرها التكاملي .